تحولات الكتابة الروائية عند محمد ديب
من خلال رواية "السيمورغ "

د. نسيمة يعقوبي

المدرسة العليا للأساتذة، بقسنطينة

ملخص:

إنَّ أقلّ ما يمكن قوله عن مؤلفات محمد ديب الخاصة بما بعد الحداثة، "هو أنها كتبت على شاكلة مؤلفات الأدب القديمة، فكثرت فيها الاقتباسات والتضمينات والإشارات. وتفاوتت فيها اللغات وتداخلت فيها الأجناس وتباينت المضامين. ولعلّ في ذلك تجاوزا لمراحل الالتزام التي عرفها الأدب في فترات طويلة من مساره الطويل. ويحدث أن تتوفر شروط تلك الوضعية عند أديب واحد مر أدبه بفترات متعددة ومتباينة، وعرفت تجربته الأدبية انعطافات شكلا ومضمونا.ومن أشهر الكتاب والأدباء المخضرمين في الساحة الجزائرية على أقل تقدير، الكاتب الجزائري محمد ديب الذي كان مواظبا على الكتابة منذ الخمسينيات من القرن الماضي إلى غاية مطلع الألفية الثالثة. وبدأ حياته الأدبية بروايات واقعية في "ثلاثية الجزائر" ثُمَّ روايات خيالية بعد الاستقلال في " من يتذكر البحر" ليختم مساره بعملين مميزين في سلسلة أعماله الكثيرة التي طالت الرواية، الشعر، القصة، الحكاية، المسرح والكتابة الصحفية.... إلخ.

إن الأمر يتعلق بـ "السيمورغ" و "لايزا"، فقد عمد محمد ديب إلى جمع الأجناس الأدبية في هذين العملين المستقلين في شكل فسيفساء أدبية.

وفي نص "السيمورغ" وظف ملامح الكتابة الروائية الحداثية، تتبع فيه مواطن التقرير والإيحاء التي تنطوي عليها ملامح نصوص العمل الأدبي...

Summary :
The new modern and post-modern novels of Mohamed Dib, distinguished by symbolism and by a number of poetic talent.
He has applied in his modern writings a kind of dispersion and free writing which has nothing to do with other literary genres, which has appeared in the last two novels entitled "Simorgh" and "Làezza".
And that is what determined his new perspectives on the artistic and philosophical dimension of the world. His first writings had realistic features (the trilogy), then his vision of things changed after independence by his novel "Who Remembers the Sea".
His presentation, the subjects he approached and his particular way of writing bearing a distinct artistic style.

الرواية الجديدة في أعمال محمد ديب:

تطوّرت رؤية محمد ديب لمختلف القضايا الوطنية والإنسانية بعد أن استقر في فرنسا. وهذا التطور بدأ يظهر خاصة منذ ظهور رواية "صيف أفريقي" un été africain"، بحيث أصبح يوظف الرمز والتصوير للتعبير عن الصّراعات الاجتماعية بين الأجيال. وقد برز هذا التطور بصورة أكثر وضوحا عندما ظهرت رواية "من يتذكر البحر" التي تعد تحولا جذريا في فن الكتابة عنده. فكانت هذه الرواية المنعرج الذي سجل القطيعة بين الرواية الواقعية لمختلف القضايا والأشياء، وبين الرواية الخيالية البحتة تجاه الأحداث الناتجة عن هول الحرب. إن رؤية الكاتب في رواية "من يتذكر البحر" تعطي مفهوما حلميا للأحداث، كما أنّ هذه الرواية تسجّل تحوّلا في طريقة بنية القصة من الترابط المنطقي المتناسق لقصة حياة إلى الاندفاعية المتفجرة للصورة، كما يقول: عبد الكبير الخطيبي في كتابه "في الكتابة والتجربة"[1]. وفي فرنسا،

[1] عبد الكبير الخطيبي: في الكتابة والتجربة، دار العودة، الجزائر، ط1، 1980، ص94.

أصبح "ديب" يهتم بأساليب وأدوات الكتابة الأدبية الفنية أكثر من اهتمامه بما يكتب لأنه تجاوز المفهوم التقليدي للالتزام الأدبي، وعليه أن يهتم بهموم الكتابة بوصفه كاتبا، و أن يطرق الموضوعات الأقل استغلالا، وأن يذهب بعيدا نحو ذات الإنسان والبحث في أعماق النفس البشرية.فجاء التحول في الكتابة على مستوى الموضوعات أو على مستوى القوالب الأدبية التي صيغت فيها هذه الاهتمامات. والسؤال المطروح الذي نحاول أن نجيب عنه هو : كيف تجاوز محمد ديب النهج الواقعي في الكتابة ؟ وما هي الأدوات الفنية التي وظفها في كتاباته الجديدة؟ فهذا التحول في المنظور، من رؤية واقعية متعاطفة مع العالم والحياة إلى نظرة باطنية عميقة تجاه الإنسان في هذا العالم، جعل محمد ديب يبحث عن قوالب جمالية جديدة، تستطيع أن تستوعب هذه الرواية الجديدة، لأنَّ البنية الجمالية للنص الأدبي هي انعكاس لنوعية المادة التي تحويها، وانعكاس لرؤية الأديب في الوقت نفسه. فما هو المقصود بالرواية الجديدة ؟ وما ماهيتها ؟ وما خصائصها وأنساقها وما هي فلسفتها الجمالية الخاصة ؟

إن هذه التجارب الروائية الجديدة قد بدأت تظهر وتنتشر في العقود الأخيرة من القرن العشرين والواحد العشرين، وتبدو هذه التجارب الروائية بمجملها على الرغم من تعدد ألوانها وأطيافها وتوجهاتها متميزة عن الرواية الحديثة ببنائها وفلسفتها ومبادئها الجمالية وتشكيلاتها اللغوية وأهدافها، والمشهد الروائي الجديد يثير كثيرا من الأسئلة والتساؤلات الأدبية والنقدية[1].

[1] آلا غروب غرييه: نحو رواية جديدة، ترجمة مصطفى إبراهيم مصطفى، دار المعارف (د.ت)، ص10.

وهناك عوامل عديدة ساعدت على ظهور الرواية الجديدة يمكن إجمالها فيما يلي:

- ظهرت تلبية للحاجات الجمالية المستجدة دون إغفال أثر التراث من ناحية والمؤثرات الأجنبية من ناحية أخرى. ويدل ظهورها على مضي المجتمع قدما في مزيد من العصرية، فانتقل الفن القصصي من مرحلة البساطة والتقليد إلى مرحلة النضج الفني. فالرواية الجديدة تعبير عن وعي فني متطور، وتجسيد فعلي لمفاهيم أدبية ونقدية جديدة تتصل بوظيفة الرواية وماهيتها وصلتها بالواقع وعلاقتها بالمتلقي، فهي أيضا بنية أدبية متميزة تتخلق نتيجة للتفاعلات الذاتية (طبيعة العناصر الروائية وتفاعلاتها) والتفاعلات الموضوعية وعلاقتها بالواقع والتراث المحلي وعلاقتها بجمهور القراء.

ولهذا كله، فالتجديد الأدبي والفن لا يقتصر على التغيير في الأسلوب، ولا يعني التزيين والزخرف وإضافة الألوان، بل يعني ما هو أعمق من هذا كله وأدل من هذا كله، إنه يعني إحساس الأديب بأن الأدوات القديمة أو المألوفة لم تعد ناجعة في تحليل الواقع والتفاعل معه وتفسيره وفهمه، ولهذا لابد من البحث عن أدوات جديدة فاعلة في هذا المضمار، وبعبارة أخرى إنَّ التجديد الأدبي بحث دائب عن أدوات تمكن الأديب وتزيد من قدراته على التعبير عن علاقة الإنسان بواقعه المتغير المستجد، وبهذا المعنى فإنَّ التجديد في الأدب هو البحث عن عالم أفضل[1].

فهذا النهج الذي بدأ محمد ديب عليه كتابته الفنية، يعد نقطة انطلاق جزئية نحو رؤية شمولية تشكلت شيئا فشيئا، كما أن مطالعاته العديدة والمتنوعة أسهمت

[1] شكري عزيز الماضي: أنماط الرواية العربية الجديدة، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية، الكويت، 2008، ص10و 11.

إسهاما كبيرا في تشكيل هذه الرؤية، وخاصة قراءاته لعدد كبير من الكتاب الأمريكيين والإيطاليين والفرنسيين وهذا الإطلاع الواسع على الآداب الأجنبية جعله يتحرر من أسلوب "فرجينيا وولف" الذي تأثر به في بدايات كتاباته. كما قرأ الرواية الأنجلوسكسونية التي كانت متأثرة بموجة تيار الوعي الذي كان نسخة بارزة عند جيمس جويس[1].

إن إحساس محمد ديب بانتمائه إلى عالم متخلف يعيش تحت وطأة الاستعمار، فهذا الشعور جعله يشبه إلى حد كبير وجود الإنسان الأمريكي الذي ينتمي بدوره إلى خليط كبير من الشعوب التي جاءت من كل أنحاء العالم، وهذا ما جعله يميل إلى أمريكا أكثر من ميله نحو أوربا، أو بالضبط نحو البرجوازية الفرنسية المتناقضة في مبادئها. كما أن تأثره بالكتاب الإيطاليين الذين ثاروا ضد الفاشية جعله إلى جانب هذا، المثقف الجزائري الذي يواجه وضعا تاريخيا لا مفر منه. ولهذا جاءت "الثلاثية: الدار الكبرى، النول، الحريق"، من حيث بنائها الفني تشبه الرواية الواقعية الأمريكية والإيطالية[2]. وبعدها سعى محمد ديب إلى التعبير عن العلاقات الاجتماعية القائمة والإسهام في خلق علاقات جديدة. فهي تصدر عن وعي جمالي يتخطّى حدود الوعي السائد ويتجاوزه إلى آفاق جديدة. ولهذا فإنَّ مهمة الرواية الحديثة تتمثل في تجسيد رؤية جديدة أي تفسير فني للعالم، والرواية كشف جديد لعلاقات خفية، ومن خلال

---

[1] يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة 1991، ص 263.

[2] المرجع نفسه، ص 264.

هذا الكشف الجديد تتولد المتعة والتشويق والجاذبية، فالرواية الجديدة تصور العلاقات من الداخل وتتغلغل في جذور الظواهر..

إنَّ مصطلح الرواية الجديدة، ينطوي على كل ما هو جديد، وهي تعبير فني عن (حد) الأزمات المصيرية التي تواجه الإنسان، فالذات المبدعة تحس غموضا يعتري حركة الواقع ومجراها. كما تشعر بأنَّ الذات الإنسانية مهددة بالذوبان أو التلاشي، وفي ظل تفتت القيم واهتزاز الثوابت، وتمزق المقولات والمبادئ وتشتت الذات الجماعية، وحيرة الذات الفردية وغموض الزمن الراهن والآتي وتشظّي المنطق المألوف والمعتاد.... في ظل هذا كله تصبح جماليات الرواية الحديثة وأدواتها غير ناجعة في تفسير الواقع وتحليله وفهمه وعاجزة عن التعبير عنه. وتصبح الحاجة ماسة إلى فعل إبداعي يعيد النظر في كل شيء، ويدعو إلى قراءة مشكلات العصر قراءة جديدة، ولهذا تسعى الرواية الجديدة إلى تأسيس وعي جمالي جديد. وفي الرواية الجديدة نلاحظ انتقالا من حدث إلى حدث، ومن مكان إلى آخر ومن شخصية إلى أخرى، وهذه الانحرافات المعتمدة تكسر التسلسل الزمني بل تفقد الزمن أهم خصائصه وهو (التسلسل)، وتتداخل الأزمنة وكذا المكان، وحتى موضوع الرواية لا يتصف بالوحدة أو التناغم أو التحديد، والشخصيات مجرد أطياف أو أسماء، أو هي مجرد حروف لا معنى لها (س، ص) أو رموز أو ضمائر أو أصوات.

ولغة الرواية ليست واحدة، فهناك مستويات متعددة وأحيانا نلاحظ تمردا على اللغة المألوفة وتراكيبها وقواعدها. وهذا لا يعني أن الرواية الجديدة بلا شكل، وإلا تحولت إلى شيء هلامي بعيد عن مجال الفن، بل يعني أنَّ الشكل هنا ليس قالبا جاهزا

يلقى على التجربة فيحتويها، فهو في مفهومه الجديد شيء ينمو من خلال التجربة ويخضع لمتطلباتها[1].

وعلى الرغم من تفكك البنية الروائية المعتمدة، وتبعثر عناصرها الظاهرة، إلا أنَّ هذا التصميم المتناثر ينطوي في داخله على دوائر دلالية جزئية تمكن القارئ أو المرء من استخلاص الدلالة الكلية للرواية الجديدة وأهدافها من خلال علاقتها بحركة الواقع والعلم.

فمن أين نبدأ مع محمد ديب ومع الرواية الجديدة ؟ إنّه السؤال الذي طرحه رولان بارت Roland Barth منذ مدة طويلة، والذي صدّر به العدد الأول من مجلته Poétique سنة 1970 وهو كما نرى ليس مجرد سؤال عادي، ولكنه يعكس حيرة الناقد أمام النص الأدبي، إنُّه سؤال لا يعكس قضية بلاغية بل قضية ابستمولوجية معرفية.

وقد حاول رولان بارت الإجابة عن هذا السؤال المحير الذي طرحه بقوله عن الرواية، "كنظام متحرك من الرموز يحبب تحديد البداية والنهاية"[2].

فتحديد البداية يعتبر مفصلا من مفاصل التحليل، وربما اختلفت البدايات باختلاف المناهج، ويوضح "بارت" مفهوم البداية والنهاية بقوله:" وهي نقاط متحركة باستمرار حسب الجنس الأدبي وثقافة المحلل ومنهجه، وهي على نوعين: الخط الحدث الوقائعي، بالخط الرمزي حيث تجتمع ملامح الرواية " والخط الرمز في هذا السياق هو الدلالة الكلية للعمل الأدبي"[3]، وقد تجلّت هذه البداية في رواية

---

[1] شكري عزيز الماضي: أنماط الرواية العربية الجديدة، ص16.

[2] حسين خمري: فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص109.

[3] المرجع نفسه ، ص ن.

السيمورغ التي تصدى فيها محمد ديب عن الوظائف والأدوار الفاعلة في كل المجموعة القصصية وعن الرموز الروائية في الوقت ذاته[1].

فرواية "سميورغ" تتكون من مائتين وستة وأربعون صفحة، تتضمن مجموعة قصصية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، يتكون الجزء الأول من:

1- السيمورغ ، 2- مدن الأشباح الزرقاء، 3- الثنائي الجهنمي، 4- الزائرة التائهـة، 5- غابات المعنى I.

أما الجزء الثاني فهو يتكون من :

1- كيف يكتسب الأطفال الكلام، 2- العولمة والعالمية ماذا أيضا، 3- الدليل، 4- طفولة مريبة، 5-اللون الأبشع، 6- الأوبيرا والأكل، 7- إذا ما مت يا توأمي المستنسخ، 8-منى،9- غابات المعنى II.

أما الجزء الثالث فيتكون من :

1- يونانيان،2- حقيقة المسكوت عنه،3- سموّ أوديب،4- بابا ديامنتيس.

فالالسيمورغ هذا الطائر الخرافي أو الأسطوري الذي يتحدث عنه محمد ديب في متاهة أدبية كبيرة جامعا بين القصة والحكاية والدراسة والمذكرات. ومن خلاله يتعرض إلى مواضيع عودنا عليها في رواياته الجديدة، "البنت الموريسكية" (l'infante Maure)، و"في الليلة المتوحشة" « la nuit sauvage »، وفي "إذا ما شاء الشيطان" " Si le diable veut " ، وفي "شجرة الكلام" "l'arbre a dire" وغيرها من المواضيع الجديدة التي تطرّق إليها مثل الإعجاب بالصحراء، كدليل على أصالة الإنسان، اللغة الفرنسية التي سطرت حياته، المنفى، قوة الحلم والخيال، الأساطير

[1] المرجع نفسه ، ص ن.

الشرقية، والغربية، والرّمز. ولتوضيح كل هذه المعاني والإشكاليات التي شغلت محمد ديب في الرواية الجديدة التي فيها من الحداثة والاختلاف عن أسلوبه الواقعي في الرواية الواقعية والتسجيلية على حد سواء.

فالقضية التي طرحها محمد ديب في أول قصة من هذه الرواية هي "السيمورغ "، مملكة الطيور، والالسيمورغ هو سيد الطيور و(si) هي ثلاثون باللغة الفارسية وMorg هي الطائر. فهي مجموعة من الطيور تبحث عن سيدها وهي أسطورة شرقية (فارسية). تناولت هذه القصة قضايا سالبة، ودلالات إنسانية، فمكابدته للقضايا الساخنة تجلت في هذه القصة. فلاحظنا فترة الضياع في الأسطورة، المتاهات اللغوية الكثيرة، الجمع بين الأساطير الشرقية والغربية، استنتجنا صورة لحياة محمد ديب، فهو يبحث عن ذاته من مواقفه الصارمة في تجربته الحياتية، بعده عن وطنه، منفاه، معاناته، علاقته بالمجتمع الجديد، باللغة الفرنسية، تمسكه وتشبثه بالعادات والتقاليد، بدينه، بوطنه. فهو يتحدث عن الكينونة، عن الذات، عن الإنسان، عن المرآة...

بقدرته الفذة استطاع أن يتغلغل في الأعماق بقوة على الاستطراد فيستعمل الملامح التي تبين تمسكه بدينه وعقيدته وتجلت في نصوصه مثل :"تجلد بالصبر" ثم يقول : "الرجفة تتملكني، ليس من عادتي، لكن لا أقدر على مراقبة حركاتي، إنها تسول علي وتسألني إلى أين ذهبت . ثم يقول : "قبل أن تدفع بالتواضع إلى حدوده، من الممكن أن تتجلى الحكمة في التساؤل"[1].

وفي هذا النص الحكائي مجموعة خواطر أعقبها محمد ديب في العنوان ذاته حيث تحدث عن معاني كلمات من قبيل الافتراضية، Virtualité، والقصيدة Poème،

[1] محمد ديب: سيمورغ، ترجمة عبد السلام يخلف، نص سيمورغ، ص24 .

والموسيقي Musique، مؤكدا على استحالة حصر المفاهيم في أسماء دون أخرى، فمهما تعددت الابتكارات الاستعارية، فإنَّ المفهوم يقوم دائما على نقيضه.

فالمرآة توهم الذات بأن ثمة ذاتا أخرى تراقبها من الجهة المقابلة، ومثلما ترى هذه الذات نفسها في المرآة فإنها ترى نفسها أيضا في القصيدة، لكن المرآة في هذه الحالة مرآة مظلمة، وتحمل الموسيقى صاحبها من فكر عقلي إلى فكر سحري فتأخذه بعيدا إلى عالم الميتافيزيقيا إلى حيث يتحقق الضياع وتنام الرغبات.

إنَّ نص السيمورغ إعادة صياغة أسطورة السميورغ المقتبسة من التراث الفارسي، إعادة أيضا لإحدى القصص الخاصة بالأدب الصوفي، فهذا الإنسان المتكون من الجسد والروح، فالجسد ينزع إلى الشهوات، والروح نزّاعة إلى الطّهر ثم التوبة والعودة إلى أصلها الرفيع.

تبنى محمد ديب في نصه الأول أسلوبا حكائيا ساخرا، جعل الراوي نفسه واحدا من الطيور المشاركة في الرحلة العجيبة المليئة بالأهوال والواصلة إلى حضرة الالسيمورغ .

وقد أعاد محمد ديب في "السيمورغ " رواية إحدى الحكايات القديمة مجدّدا قيمتها الأدبية والفنية، كما تناول فكرة الإنسان الذي تتقاسمه قوى الخير والشر، حيث جاءت الأسطورة عاكسة للذات الإنسانية وفنائها في الذات الإلهية. فتشكّل الذات الإنسانية إذن المحور الأساسي الذي تدور حوله أفكار محمد ديب في نصه الأول (السيمورغ).

أصبحت الكتابة الأدبية لدى محمد ديب بهذا المنحى، تتجاوز الآني والراهن لتحتضن الأسطوري والرمزي، وهذا مظهر بارز من مظاهر الفن المميز الذي حظي باهتمام كبير من طرف الأدباء والنقاد، أمثال جاك دريدا، ورولان بارث وجوليا

كريستيفا وآخرين. وهذا المظهر الفني الجديد هو ما بعد الحداثة وقد ظهر هذا المصطلح "ما بعد الحداثة" أول ما ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية، للدلالة على التحول الذي آلت إليه الثقافات الغربية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. لينتقل المصطلح بعد ذلك إلى ميدان الأدب سعيا إلى وصف أو تسمية الأدب الأمريكي الذي أفرزته فترة ما بعد الحرب. ولم يفرض نفسه في النقد الأدبي إلا في الستينات من القرن الماضي، حيث ابتعد عن الرواية الموضوعاتية من جهة وعن آليات المنهج الشكلي من جهة أخرى[1].

أما في فرنسا، فقد كان الفضل لـجان فرانسوا لوتار « Jean François Léotard» في تكييف المصطلح وجعله محل نقاش وجدال في الأوساط النقدية الأوروبية وكان ذلك عام 1979 بعد نشر كتاب "الظرف مابعد الحداثي، تقرير حول المعرفة في المجتمعات الأكثر تقدما".

La Condition post-modern rapporte sur le savoir dans les sociétés les plus développées.[2]

إلا أنَّ من الذين اشتهروا بهذا التيار الما بعد الحداثي واستجابوا له نجد جاك دريدا Jacque Déridal ، و انعكس هذا في أعماله حول التفكيكية، رولان بارت، وجوليا كريستفا.

---

[1] عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص79/ 80

[2] -Marc Gontard, le Roman Français post moderne une écriture turbulente, HTTP / HALSH S, CCSD , CNRS, Fr.2005.

إنَّ أقل ما يمكن قوله عن مؤلفات ما بعد الحداثة هو أنها كتبت على شاكلة مؤلفات الأدب القديمة. فكثرت فيها الاقتباسات والتضمينات والإشارات، وتفاوتت فيها اللغات وتداخلت فيها الأجناس وتباينت المضامين، ولعل في ذلك تجاوزا لمراحل الالتزام التي عرفها الأدب في فترات طويلة من مساره الطويل، ويحدث أن تتوفر شروط تلك الوضعية عند أديب واحد مرَّ أدبه بفترات متعددة ومتباينة، وعرفت تجربته الأدبية انعطافات شكلا ومضمونا.

قد يكون محمد ديب أشهر أولئك الأدباء المخضرمين في الساحة الأدبية الجزائرية على أقل تقدير، فقد كان مواظبا على الكتابة منذ بداية الخمسينات من القرن الماضي إلى غاية مطلع الألفية الثالثة، وبدأ حياته الأدبية بروايات واقعية لينتقل إلى روايات خيالية بعد تحرر الجزائر من المستعمر الفرنسي، ليختم مساره بعملين مميزين في سلسلة أعماله الكثيرة التي طالت الرواية والشعر، القضية، الحكاية، المسرح والكتابة الصحفية.

عمد محمد ديب إلى جمع الأجناس في عملين "السيمورغ "، و"لايزا" في شكل فسيفساء أدبية، كما عمد إلى جمع نصوص كثيرة متباينة عن بعضها البعض بشكل لافتٍ للنظر. وفي رواية "السيمورغ "، وظف محمد ديب ملامح الكتابة الروائية الحداثية. فهذا النص يحيل إلى الموروث الفلسفي الروحاني، وإلى التراث الفكري العقائدي، كما يحيل إلى خلاصة حياة حافلة بتجارب عدة تعددت مصادرها وتنوعت مظاهرها؛ حياة شكل فيها موضوع البحث عن الذات هاجسا قويا.

ويقترن العنوان الذي اختاره محمد ديب لعمله باسم فارسي، يدل في جملة ما يدل عليه على اسم الإله "السيمورغ " وعلى رقم ثلاثين "سي مرغ" وهذا العمل يحمل رمزيته في عنوانه، حيث سيحضر الطائر الأسطوري أو ما كان يعرف قديما

بملك الطيور، الرحلة الفلسفية لابن سينا (428 هـ / 1007م)، في كتابه "رسالة الطير"، وكذا الرحلة الصوفية لفريد الدين العطار (627/ 1220هـ) في كتابه "منطق الطير"، سواء أكانت رحلة البحث التي أرادها محمد ديب فلسفية أم صوفية. فإنها جاءت محصلة لعمر ثلاث وثمانين سنة وحياة كلها ترحال واغتراب والتزام أدبي.

فإذا كان "السيمورغ " يرمز عند ابن سينا إلى الملك المخلص، ذات الفلاسفة ومنجدهم، وإذا كان يرمز عند العطار إلى ذاك الإله الذي يحترق الصوفيون شوقا للفناء فيه، فإنه يرمز عند محمد ديب إلى إله يصب في ذاته خلاصة زهده الإبداعي[1]. ويشكو إليه ضعف حيلته في رحلة البحث عن الذات التي أثقلت سنين عمره وأرهقت وجدانه وفكره ،يستغيث به لفك حصار غربته التي طال ليلها؛ غربة لازمته ديار الناس وأملاها عليه الترحال والاستقرار، غربة أبكته وأسعدته، وكتبها فأحسنَ كتابتها...

فهل "السيمورغ " عند محمد ديب، شوقٌ إلى الوطن والاغتراب، وإلى الصبا والكبر وإلى الماضي والمستقبل أم إلى الفناء والمجهول ؟.

إنَّ فلسفة محمد ديب نشأت على أنقاض ما خيب حياته وما أسعدها، الطفولة، البؤس، الاستعمار، الاغتراب، الإقصاء، العنصرية، العولمة، العنف، الكبر...) أما تصوّفه فيلوح في أفق حياته الأدبية التي عرفت الالتزام والحياة والمواظبة.

فالسيمورغ لمحمد ديب، كتاب لخص جميع كلامه الذي كان بمثابة شجرة للكلام الجميل كآخر صرخة يتركها لقرائه. وتكمن قوة الكتاب في قدرته على سبر أغوار الذات البشرية وتوقيفها للحظة أمام صورتها في المرآة، وهذا من خلال سلسلة

(1) عزيز نعمان: جدلية الحداثة وما بعد الحداثة في رواية سيمورغ لمحمد ديب، ص 39.

من المواقف التي ترسم سفر الكائن في النفس المدعوة بالأم والمنفى والبحث عن معنى الحياة والموت و بينهما الروح الموردة في الأفق[1].

حاولت هذه الرواية أن تؤكد انحيازه المطلق للإنسانية، وقد ضمنها كل تقنيات الرواية الحديثة، حيث نجد فيها فن الحكاية والقصة القصيرة والقصيرة جدا وقصيدة النثر والخيال العميق وحكمة الفلسفة العميقة جدا. وبهذا يعتبر محمد ديب من الكتاب القلائل في العالم الذين تميّزوا بفنّهم وبكتاباتهم الأدبية. وهو كعادته يوظّف في هذه الرواية الذاكرة والماضي، لقراءة الحاضر، منتقدا التعصب وضيق الروح، والقلوب المنغلقة عن الآخر.

ومحمد ديب، يستحضر فكرة الشرق والغرب في الماضي البعيد والحاضر القريب، وهو يستعرض ثقافتهما وحضارتهما المختلفة، فيغوص عميقا في بحثه عن الحقيقة وعن مصير الإنسانية، وعن العواطف المختفية وسط ركام المادية والحضارات الزائفة ومن أكبر المدن التي تخفي هذه العواطف هي باريس على سبيل المثال، فيقول عنها محمد ديب :

يا ليالي باريس الطويلة
كم أحبتني بالمرارة والحسرة والملل
إنك للغريب منفى
جحيما وظلمة
عندما تلقي السماء بظلالها الرمادية على نهر السين
فالمسكين يستكين

[1] – المقهى الأدبي "السيمورغ" www.adicafe.com/single -581 – html

وقلبه ينزف صارخا مرتجفا

كم لاجئ يا باريس لم يزدد ألمه ألما

وليلة ظلمة عندما يسدل أستاره

وإنَّ مكانه ليس هنا.[1]

إن الظاهرة البارزة في رواية "السيمورغ "، هي تداخل الأجناس واضطراب النصوص واختلاطها، وتباين خطاباتها شكلا ومضمونا، وهذا ناتج طبعا عن تداخل حداثي وما بعد حداثي، وهذه صفة من صفات الفروق الجوهرية الحاصلة عند محمد ديب في مسألة الكتابة من حيث هي مفهوم وممارسة فالمضامين الخالدة في كتابات محمد ديب كالحب، والمآسي الإنسانية والألم، تبقي عظمة هذا الأدب، ولهذا ظل يناضل ضد العنصرية والهمجية و قهر الإنسان واستعباده.

يرصد نص السيمورغ الإضاءات اللاشعورية على تعرجات في معابرها الوعرة، في ألوان المتناقضات بين شكليه الظاهر والباطن المشعر بالرغبات الدفينة والجنون المكبوت في حراك الجسد، في تيه فضفاض مشرع النوافذ نحو المجهول، في عوالم ضجيج تصادم المضادات في معركة تعلية الحق الزائف بألسنة الحجاج السفسطائية، وثبات حصانة الظاهر على جسد المتناقضات واللا نهايات في لغة هستيريا تساقط الأوراق الخريفية من رحم الواقع الضبابي المترع بأسطورة فناء اللون في خلق الألوان على صفحات الحياة...[2]

فشكلت هذه الدراسة بعدا نقديا ذا أهمية بالغة باعتبارها جسرا تواصليا بين مدرسة النقد التقليدية في كفاياتها النقدية الصارمة المحددة، والمدرسة النقدية الحديثة

---

[1] -Mohammed Dib, Ombre gardienne, sindbad, Paris, P18.

[2] – Aslim.net.free,Fr محمد أسليم، إضاءات حول أعمال محمد ديب

في إطار لغة التحليل السيكولوجي للنص الذي يعكس مسارات الذات وتعرجاتها وماهية انشطارها اللاشعوري على النص. وهذه تعتبر ميزة من مزايا مدرسة ما بعد الحداثة في النقد وفيها إثراء لقيمة النصوص التي تدور في ضوء كتابات تيار الوعي الحداثي الذي يبحر في تعرجات الذات وفي بساطة اللغة الرمزية المشفرة وتتمثل فيما يلي :

1- تبعثرات الذات : خروج الذات عن الطبيعة في شتات السلوك المستعر وفقدان مقادير التوازن بلذة نهمة، والانسحاب من بؤرة الحقيقة ومقامها في الواقع.

2- فوضى المتضادات : حالة تجديدية لانعكاسات بعثرة الذات على حيز الزمان والمكان في توأمة الإسقاطات من خلال معادلة الأنا، الآن، هناك.

3- الأسلوب التحليلي الناقد : كمنهج للدراسة لغايات الكشف عن صدق فرضيات الدراسة وتحقيق أهدافها المتوخاة منها.

4- المحاور الفكرية في النص وتتمثل في :

أ- ماهية بعثرة الذات في النص

ب-الأبعاد النفسية والاجتماعية

ج- مساحات فوضى المتضادات في النص

د- لغة الكاتب التعبيرية

5- نتائج الدراسة وتتمثل في :

أ- لغة كلمة صمت

ب- يشكل النص هوية اجتماعية، ترصد الواقع بجوهر أزمانه على صفحة الحقيقة.

ج- يدنو النص إلى كشف الحقيقة في شيفرات لغته الرمزية الإيحائية.

د- لغة المونولوج في النص خطاب ثنائي في حوار الذات لذاتها

ه- تبرز في النص سلاسة الأفكار المنسابة برتابة، لا تلبث أن تتعالى مع وتيرة تواكب أحداثها إيقاعات ضجيج ناشئة من تقاطع الحوارات مع لغة الشخوص في سمة حرارة الاحتكاك تارة، وبلغة الرفض وإسقاطات المونولوج تارة أخر. فتتولد إضاءات كاشفة لما يختلج في أعماق اللاشعور من مكنونات بوح دقيقة في تعرجات أغصان الحروف المتشابكة تعقيدا أو ضبابية غامضة في النص.

و- تأكيد وجود المدرسة السيكولوجية في النص التي تسلط الرؤى على الذوات في سيكولوجيا حراكها ولغة إسقاطها على مسرح المجتمع في أغلفة جدرانه المكانية والزمانية في إطار مدرسة النقد البنائية وسيكولوجية التحليل الأدبي للنص، في لغة النقد المتجاوبة مع تلك الأطياف التحليلية في الرؤية النقدية[1].

إن حالة الاضطراب التي صاحبت محمد ديب في كتاباته لا تمنع من وجود علاقة دلالية بين النصوص بعضها ببعض وتتجلى هذه العلاقة في مظهرين اثنين :

المظهر الأول : تكرار أدلة الذات لأن الذات كانت موضوع البحث، وتكرار أدلة الكتابة لأنها الوسيلة الوحيدة التي يبدع بها الكاتب ويتطور ويتغير.

[1] – محمد أسليم، إضاءات حول أعمال محمد ديب ، أنظر المقالة على الموقع aslim net. free.Fr

المظهر الثاني : العلاقة بين الكتابة والذات التي تقوم على أساس الاتساق أو ما يسمى بعلامات الاتساق.

فالمتتبع لنصوص "السميورغ" يدرك هذه التقنية الجديدة والتعامل مع اللغة كونها تتسم بالانسياق والتتابع والترابط والتواشج بين أجزائها، لأنها تنقل لنا أحداثا متعلقة بشخصيات أو شخص واحد من صورتها الواقعية أو الخيالية إلى صورتها اللغوية، فإنَّ هذه البنية التي نعدها من التقنيات الجديدة قد حررت اللغة من انغلاقيتها على المضامين الكسيحة التي تفرض شكلا معينا وأفضت بها إلى الشساعة والاتساع.[1]

لقد دخل محمد ديب تجربة تتخلخل فيها نمطية الساكن لتتحول إلى تمرد على الجاهز، وتحرر من كل القيود النثرية الكلاسيكية فأطرى الأدب القصصي برؤيته المخالفة، فجدد في الشكل ولم يهمل المضمون الذي قدمه أكثر جرأة وأكثر عنفا موظفا في ذلك كل الوسائل الفنية ليغدو النص مفتوحا بكل أبعاده الفنية والفلسفية.[2]

حاولت الفلسفة الرمزية التي تزعمها أرنيست كاسبير في كتابه فلسفة الأشكال الرمزية أن تجد في الرمز مفتاحا لفهم طبيعة الإنسان من خلال اهتمامها بالأشكال اللغوية والفنية والميثولوجية، والتي تمثل وسيطا رمزيا يواجه به الإنسان من خلال اهتمامها بالأشكال اللغوية والفنية والميثولوجية، لمواجهة الكون وما حوله، لتبقى هذه الأشكال عبر السنين نتاج تفاعل بين عالم الإنسان وعالم الواقع...

---

[1] –عبد القادر بن سالم: مكونات السرد في النص القصصي الجزائري، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2001، ص 95.

[2] – المرجع السابق، ص 97.

ومن ثمة صرح أرنست كاسبير:" إنَّ الإنسان حيوان رمزي في لغاته وأساطيره ودياناته وعلومه وفنونه"[1] على خلاف جوليا كريستيفا التي ذهبت إلى أن الرمز لا يشبه الموضوع الذي يرمز إليه، وأن الفضاءين منفصلين وغير قابلين للاتصال... فالفكر الأسطوري الذي يدور في حلقة الرمز يتجلى في الملحمة والحكايات الشعبية ويشتغل في وحدات حصر بالمقارنة مع الكونيات المرموزة كالبطولة والشجاعة والنبل والخيانة، في حين أن "غريماس" يؤسس الرمز انطلاقا من منظور آخر عندما يعتبره جزء من سيمياء السطح، ويبين أنه ليس علامة لكونه يدخل في نظام من المشاكلة ويرتبط عادة بسياق اجتماعي ثقافي[2].

ومجمل القول إن الكاتب محمد ديب استعمل الرمز بأنواعه التراثي، التاريخي، والطبيعي، فزاد نصه جمالية، ويفسح المجال أمام المتلقي للتأمل والتفكير والاكتشاف.

تجسد رواية "السيمورغ " النص الفسيفساء Le Texte Puzzle ، ونطلق على هذا النوع من الكتابة الرواية الفسيفسائية، فهي تتكون من ثلاثة أجزاء، وكل جزء يتكون من عدة نصوص وهي تعرف بالكتابة المفتوتة[3]" « écriture décousue » فمحمد ديب يسعى إلى إعادة إلصاق شظايا هذا الخطاب المتناثر من خلال القراءة التي يمارسها على هذه النصوص المكتوبة، وهذا العمل في حد ذاته يعد عملا ونشاطا إبداعيا. فلما سئل محمد ديب عن هذا النص، وعن الغموض والأسرار والتشتت

---

(1) – المرجع السابق، ص ن

(2) المرجع السابق، ص ن

(3) Cloude Potvin, l'esthétique et le détail dans « nous parlons comme on écrit » P 42.

عن عزيز نعمان، جدلية الحداثة وما بعد الحداثة في نص سيمورغ ص 155.

الذي يحيط به أجاب بعدم رضاه عن هذه الكتابة، لأنه يسعى دائما إلى الأفضل وإلى الأحسن ولو كانت لديه إجابة عن أسئلة كثيرة لما وضع كل هذه التساؤلات أمام القراء.

فحرص محمد ديب على إعادة شحن كتابته باستمرار وتجديدها على مستوى الشكل والمضمون تحققت في نصه "السيمورغ " التي أبدع فيها بتقنيات البداية الجديدة والحداثة وممارسة ما بعد الحداثة التي استجاب لها نصه الجديد بكافة عناصرها وهذا يدل على قدرته ووثوقه كثيرا بمبدأ التقدم والتطور لأن رواية الحداثة لا تقدم معاني جاهزة، فهاته المعاني نبحث عنها من خلال تفكيكنا لبنية النص المقروء. فمحمد ديب لا يهمل القارئ، ولكنه يطالبه بالضرورة المطلقة في عملية الخلق والإبداع في إطار ما يسمى بـ l'archi-écriture الكتابة الجامعة أي القراءة التي تضم الكتابة.[1]

فرواية "السيمورغ " اعتمدت على جماليات التشظي والتفكيك لأنها تحتاج إلى جهد وصبر ومثابرة في تحديد الرؤية الثاقبة لكل حدث اختاره الكاتب، والرواية في فضائها وومضاتها المبعثرة توحي بسخرية لاذعة تجاه ما يحدث في العالم من اختراعات مدمرة لقيمة الإنسان واحترام الكون وصرخة في وجه الحاكمين والمسؤولين على الاهتمام بالإنسان واحترامه وتحسين ظروف معيشته.

يفتح محمد ديب نصه على حكاية الطيور المرتحلة بحثا عن ملكها السيمورغ ليختم عمله بالحديث عن المسكوت عنه، وضرب لنا مثالا بالأسطورة الإغريقية من

(1) - Lucie guilemette et joisiane cosette, les constructions et différences, Québec, http:// www sinosénio-com 2006.

خلال الأديب بابا ديامنتيس والإشادة بأعماله والدعوى إلى تفكيك رموزه والأساطير التي استعملها في كتاباته.

فهذا التنوع في النصوص يوضح لنا مدى اعتماد محمد ديب في عمله على الإلصاق والتشظي، كإجرائين يفضلهما الأدب ما بعد الحداثي.

فما هو الأدب ما بعد الحداثي الذي برزت تقنيات كتاباته في نص السيمورغ وعبر كل نصوصه التي تميزت بالتشتيت والتفتيت وخاصة في الجزء الخاص بـ غابات المعنى1. وغابات المعنى2.

يعود مصطلح مابعد الحداثة إلى دور وسائل الإعلام في المجتمعات الرأسمالية في أواخر القرن العشرين. وهناك من الباحثين والدارسين من يربط ما بعد الحداثة بفلسفة التفكيك والتقويض وتحطيم المقولات المركزية الكبرى التي هيمنت على الثقافة الغربية من أفلاطون إلى يومنا هذا.

ومن ثم اعتمدت فلسفة ما بعد الحداثة على التناص واللا نظام واللا انسجام. فقد غزت نظريات ما بعد الحداثة جميع الفروع المعرفية كالأدب والنقد والفن والفلسفة والأخلاق والتربية. إن ما بعد الحداثة حطم كل قواعد التجنس الأدبي وسخر من نظرية الأدب ومن ثم أصبحنا اليوم نتحدث عن نصوص تتميز بخاصية الغموض والإبهام والالتباس، بمعنى أن دلالات النصوص غير محددة بدقة وليس هناك مدلول واحد بل دلالات مختلفة ومتناقضة ومتضادة كما في المنظور التفكيكي عند جاك دريد Jacques Derrida (1930- 2004).

معنى ذلك أنَّ المعنى يغيب ويتشتت عبثا في كتابات ما بعد الحداثة، ومن رواد هذه النظرية، نستحضر الفيلسوف الفرنسي جون بودريار Jean Baudillard (- 1929 2007) الذي اشتهر بنقده للتكنولوجيا الحديثة والإعلام، وقد شرح هذه الأفكار في عمله "التظاهرات والمحاكاة"، ومن رواد هذه النظرية المفكر الفرنسي Jean François Lyotard (1924-1998) .

في كتابه " الحداثة وما بعد الحداثة" عام 1979 أو الظرف ما بعد الحداثي La Condition Post-Moderne.

ونظرية مابعد الحداثة من المناهج الأدبية والنقدية ومن إيجابيات هذا المنهج أنها حركة تحررية تهدف إلى تحرير الإنسان من عالم الأوهام والأساطير، وبناء قيم جديدة، احتفت بالضحك والسخرية والقبح والمفارقة والغرابة، واعتنت بالمهمش والمدنس وانزاحت عن الأعراف وعن القيم والقوانين ، واستسلمت للغة التشظي والتفكك واللانظام، ونددت بالمفاهيم القمعية وسلطة القوة....إلخ.

خاتمة:

هكذا يكون محمد ديب في روايته "السيمورغ " قد وظف بعض ملامح الكتابة الروائية ما بعد الحداثية، وهذه الدراسة أسهمت في بلورة الكثير من التصورات الأدبية والنقدية نحو أفق أدبي ونقدي جديد لتتيح المجال واسعا لقراءات وتأويلات لتكون شاهدة على صورة العالم في نهاية القرن العشرين للتعبير عن علاقات الإنسان المعقدة في كل المجتمعات.

إنَّ التطور الفني في كتابات محمد ديب شملت مجمل الآليات والتقنيات على اختلاف المراحل التي مرت بها تجربته الإبداعية، فبعدما تراءى لنا أنه عدل مساره الفني والإبداعي بعد الاستقلال من خلال روايته "من يتذكر البحر؟" سنة 1962 أصبحت رحلة الكتابة عنده جديرة بالبحث في الكتابة وفق مناهج الحداثة وما بعد الحداثة، فجاءت كتاباته ذوبانا نفسيا وثقافيا ونجمت عنها أروع النصوص التي خلدت عملاق الكتابة الجزائرية باللغة الفرنسية[1]

[1] نسيمة يعقوبي: دراسة كرونولوجية وفنية في آثار محمد ديب الأدبية، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، 2014-2015. ص 524.